— عبر الحرب البلقانية وخطر المسألة الشرقية —

٣

مقدمات الخذلان في هذه الحروب

محاربة الاتحاديين للدين

من المسلمات التي لا يختلف فيها عاقلان ، ولا يتطلع فيها عنزان ، أن القوة المعنوية ، هي الاصل الباعث على الاعمال المادية أو الصورية ، وأن الدين هو أعظم القوى المعنوية أثراً ، وأشدها على المخالف خطراً ، وأن الفريقين المتحاربين إذا تساويا في في جميع ما ينبغي للقتال من علم ومعرفة ، وذخيرة وعدة ، وتفاوتا في قوة الايمان بالله عز وجل والرجاء في الحياة الآخرة ، فان أقواهما إيماناً وأعظمهما رجاء هو الجدير بأن يكون له الفلج ويتيسر له النصر . وقد صرحت الجرائد الاوربية بهذه الحقيقة في سياق البحث في أسباب رجحان البوير على الانكليز في حرب الترنسفال ، كما بيناه في المجلد الثاني من المنار

وقد نشرنا في المجلد الاول من المنار نبذة في هذه المسألة ترجمها الاستاذ الامام رحمه الله تعالى من (وقائع بسمارك) التي نشرها بعد موته أمين سره (مسيو بوش) قال :

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في اعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هنالك أمل في الاجر والمكافأة . ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان . ذلك مما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت وان لم يكن قائده يراه »

فقال بعض المرتابين أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وانما هو شعور ووجدان . هو بوادر تسبق الفكر . هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها . ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك

الميل ، وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون أني لا أفهم كيف يعيش قوم ، وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليهم ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي . واعتقاد بالله يحب الخير، وعالم ينتهي اليه الفصل في الاعمال ، في حياة بعد هذه الحياة ؟ »

بعد هذا تكلم ذلك الرجل العظيم عن نفسه فأكد القول بأنه لولا ايمانه بالعناية الالهية ويقينه بحياة بعد الموت وشعوره بأنه يرضي الله بخدمته الامة الالمانية وسعيه لوحدتها واعلاء شأنها ، لما رضي لنفسه أن يكون من حزب الملكية وأن يخدم الملك لانه هو جمهوري بالطبع . والوظائف والرتب والالقاب لا بهاء لها في نظره . وانه لا يحب الا البيئة الخلوية في المزارع . ومما قاله « اسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني » ومنه « ان لم اكن خاضعاً لامر الهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه الاسرة المالكة مع انها تتصل باصل ليس بالاعلى ولا بالانبل من الاصل الذي تتصل به عشيرتي ؟ » ومن أراد ترجمة نص قوله برمته فليرجع الى المنار (ص ٨٤٦ م ١ من الطبعة الثانية)

وقد قال الاستاذ في مقدمة هذه الترجمة انه ترجمه « ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شبابنا الذين يمدون النسبة الى دينهم سبة، والظهور بالمحافظة عليه معرة ، وليعلموا ان الايمان بالله وبالوحي الالهي الى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر، ولا ضلة عن صحيح العلم ، ولا عياً في الرئاسة ، ولا ضعفاً في السياسة »

وقال بعدها « هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله ، انما كانت من مظاهر ايمانه ، وان الايمان بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما الى عالم يدرك فيه مفاخره، ولم يكثره مكاثر »

أقول بعد هذا التمهيد ولكن زعماء الاعتداديين قد تخزروه وكثروه في السياسة فكان اتحادهم المنهاري ، أقوى وأعلى وأثبت من اتحاده الالماني ! ! ! لانه بني على صخر الايمان ، وبنوا على رمل الالحاد

لقيت في الاستانة الدكتور ناظم بك الزعيم الاكبر للاتحاديين الذي خلف صادق بك أمير الالاي بعد ان تبرأ من الجمعية فصار هو المرخص المسئول لها . لقيته يتحدث مع فطين افندي المدرس في دار الشفقة والمدير للمرصد الفلكي الجديد في ضواحي العاصمة وكان يومئذ من صميم الاتحاديين ، على حين تركهم أكثر أمثاله المعممين ، حتى كان يشك في تدينه رجال الدين ، فقال لي تعالى أحكم

بيني وبين الملك . قلت ما خطبكما ؟ قال ان الملك يقول اننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى الا اذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً ، نمحقهم به محقاً ، وسرنا وراء فرنسة خطوة خطوة . وأما أنا فقلت له اننا يجب أن نأخذ من أوربة — لا من فرنسة خاصة — الفنون الصناعية والزراعية وكل ما نحتاج اليه للترقي العملي في دنيانا . وأما الامور المدنية والادبية فنرجع فيها الى أصول ديننا ونستمدها منه . فقال لا يجب أن نأخذ عن فرنسة كل شيء فان جميع ما عندنا فاسد وموجب للتدلي

لا يحتاج القارئ الى القول بأن رأي فلان أفندي هو الموافق لرأيي في هذه المسألة وقلما رأيت أحداً أوجز وأفاد في تحرير هذه المسألة الكبيرة مثل هذا الرجل ، ولكنني سلكت في تأييده مسلك بيان السبب في هذه التفرقة والخلاف بين المتعلمين ، وتطرف بعضهم في التفرنج وبعضهم في الجمود على القديم ، وشدة الحاجة الى المعتدلين الذين يعرفون القديم والحديث (أي كفلان أفندي) وانتقلت من هذا الى مشروع العلم والارشاد الذي كنت أسعى له هنالك وليس هذا المقام يحمل تفصيل القول فيه

جميع زعماء الجمعية على رأي ناظم بك الذي ذكرناه آنفاً ولكن قلما يوجد فيهم من يتجرأ على التصريح به مثله . وقد سمعت منه ومن غيره منهم وغيرهم غير ذلك ولولا ظهور قوة تأثير الدين فيهم في الجيش يوم ٣١ مارت (أو ١٣ ابريل) لظهر من تهتكهم والجهر بمقاومتهم للدين أضعاف ما ظهر للناس . وما الذي ظهر بقليل . ونكتفي من ذلك بشيء مما يتعلق بالجند حذراً من التطويل

كانت الصلاة في العسكر أمراً اجباريا يتساهل فيه الضباط المارقون والمرتابون في خاصة أنفسهم ، وقد يتعدى ذلك الى الجنود التابعين لهم . فاذا جاء متدين منهم وشدد فيه لا يستطيع معارضته أحد لانه رسمي . فلما دالت الدولة للاتحاديين جعلوا الصلاة أمراً اختياريا وصاروا يوعزون الى حزبهم من الضباط بتركها واشغال العسكر عنها بالتمرين أو غيره من العمل في أوقاتها ، حتى في المدرسة الحربية العليا نفسها

أخبرني من أثق بهم في الاستانة بهذا ، وآخرون بخبر آخر أضر منه في الجيش وهو أنهم كانوا عند التنسيق العسكري يمنون باخراج الضباط المتدينين من الجيش . وأكثر هؤلاء المتدينين من الذين ارتقوا الى رتب الضباط بالعمل والتمرن في الجيش في إبان السلم والحرب سنين كثيرة ويسمونهم (الألايلية) نسبة تركية الى (ألاي) وكان عذرهم في اخراجهم أنهم غير متخرجين في المكتب الحربي فمدارسهم غير قانونية .

وقد أخرجوا بعض المتخرجين في المكتب الحربي بمال أخرى ، كما أبقوا بعض (الالايلية) الذين اتبعوا هوى الجمعية . ولو كان عدد الضباط المكتبيين كافياً لعسكر الدولة لكان لهم في اخراج من أخرجوا وجها للاعتذار وان أضر ذلك بمالية الدولة وخسر به جيشها طائفة من الضباط ، يفضلون كثيراً من متخرجي المكتب الاحداث الاغرار ، (أي الذين لا تجربة لهم)

وقد كان غرض الاتحاديين من تنسيق عمال الحكومة في جميع النظارات والمصالح أن يخرجوا منها من شاؤا ، ويبقوا من أحبوا ، ليلم كل فرد من أفراد هذه الدولة ان جمعية الاتحاد والترقي هي ولية أمره وصاحبة السلطان عليه ، فيكون طوع يدها ، ويؤدي لها ماعدا الضريبة الاولى ما فرضه قانونها على كل منتم اليها ، وهو اثنان في المئة من جميع دخله (ايراده) وقد كانت خسارة الدولة بهذا التنسيق أكثر من ثلاثة ملايين جنيه في كل سنة تعطي رواتبها للعزولين والمنسقين . وما كان الذين استحدثوهم ، خيراً من الذين أخرجوهم ، ولولا هذا التنسيق لكان للدولة من المال الذي خسرته به ما يمكنها من شراء مدرعة وطرادة من الدرجة الاولى في كل سنة

ان أكثر الضباط الذين تعول عليهم الجمعية في نصرها من الملحدين أو المرتابين في دينهم ، ومنهم الذين يصرحون بالكفر تصريح الحقود المنتقم من الدين ، ومن ذلك ما حدثني به بعض الثقات في الاستانة عن بعض الباشوات انه قال : لو كان في بدني شعرة تؤمن بفلان — وذكر خاتم الرسل وسيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم — لنتفتها مع اللحم الذي حولها وألقيتها . ومن لم يجدوه على مثل هذا الفساد من قبل حاولوا افساده بالسياسة ، فكانوا لا يقبلون ضابطاً في الجمعية ، الا اذا دخل الماسونية ، وهذا وذاك أهم الاسباب التي حملت أمير الألاي صادق بك الشهير على معاداة الجمعية ومقاومتها ، بعد ان عجز عن اقناع زعمائها بترك هذه المفاسد . وكان محمود شوكت باشا جاراه باظهاره له انه مجتهد في منع الضباط من الاشتغال بالسياسة وجهر بذلك في خطبة له في نظارة الحربية ، وخطبة أخرى في أدرنه ، كنت من المعجبين بهما وبه يومئذ وأنا في الاستانة ، ثم ظهر لصادق بك أن ذلك خداع ، ثم ظهر لسائر الناس أيضاً في المريضة التي استقال بها محمود شوكت باشا من نظارة الحربية ، فانه صرح فيها بانه يترك تنفيذ قانون منع الضباط من السياسة لخالفه . أي انه لا يمكنه تنفيذ هذا القانون وهو الذي أسس الفتان للضباط حتى توغلوا في السياسة أن يمنعهم منها عند ما قامت ثورة طائفة كبيرة منهم في بلاد الارنؤط طالبين اسقاطه واسقاط جميعه

مثل جمعية الاتحاد والترقي في إضعاف الدين في الجيش واخراج عدد كثير من الضباط المتدينين من صفوفه كمثل من كان له بيت يؤويه ويقيه فواعل الجو فهدمه لانه صار يراه غير لائق بمقامه ، ولكن قبل أن يبني له بيتاً آخر على النحو الذي يحب ، فبينما هو في العراء يفكر ويقدر ويجلب بعض الحجارة لبناء بيت آخر ، عصفت الريح فأثارت السحاب فاعتلجت فيه البروق ، وقصفت الرعود ، وانهمر الصيب الهتون ، فجرفه هو وما كان جلبه لبناء البيت

انهم أرادوا أن يستبدلوا الوطنية العثمانية والجنسية التركية ، بما يهدمون من الرابطة الاسلامية والنزعة الدينية ، التي لولاها لم يكن الجيش العثماني مضرب المثل في شجاعته وبأسه وثباته في مواقف النزال ، وبلائه في معارك القتال ، فأنشأوا أناشيد وأغاني باسم الوطن التركي ، والجيش العثماني ، ليخلقوا بها شعورا جديداً للجند يقوم مقام الشعور الديني ، ولعل هذا من أقوى الجوامع التي جمعت بينهم وبين زعماء الحزب الوطني المصري فان هذا الحزب يفخر دائما — وليس له أثر صالح في البلاد — بأنه أوجد الشعور الوطني ، وهذا الشعور هو الذي يخرج الانكليز من القطر !! ومن حسن حظ مصر أن هؤلاء المغرورين لم يتولوا أمراً من أمور البلاد ، وأما الاتحاديون فمن سوء حظنا انهم تولوا أمر المملكة ثلاث سنين أفسدوا فيها مالم يستطع عبد الحميد مثله في ثلاثين سنة

شهد العلماء الذين أرسلتهم الحكومة لوعظ الجيش في شتائه بانه تبين له بعد الاختبار أن أهم أسباب انكساره في هذه الحرب قد كان مما أودعه الاتحاديون في نفوسهم من أن وظيفة الجيش الدفاع عن الوطن بعد ان نزعوا منها الاعتقاد بأن هذا الدفاع مشروع ديناً وأن الذي يقتل فيه شهيد له عند الله حياة خير من هذه الحياة ذات نعيم دائم ورضوان من الله اكبر

وشهد عظماء الالمانيين الذين يتلقى الجيش العثماني عنهم فنون القتال ان أهم أسباب انكساره هي افساد الاتحاديين له باشغاله بالسياسة . وقد بينا أن هاتين المفسدتين متلازمتان فانهم ما اجتهدوا في اضعاف الدين الا لغرضهم السياسي ، وما أدخلوا الضباط في السياسة الا للاستعانة على مقاصدهم بالقوة ، لعلمهم بأنهم عاجزون عن الوصول اليها باقناع الامة . وقد كانوا يظنون عقب الانقلاب انه يتسنى لهم ان يقودوا جميع علماء الاستانة وعلماء الولايات بزمام المنافع والمناصب ، والرتب والرواتب ، غرورا بما كان من خضوعهم لعبد الحميد وبعض المنافقين ، الذين رأوهم مستعدين

خدمتهم في كل شيء باسم الدين، ثم بدا لهم من علماء الاستانة ما لم يكونوا يحتسبون كانوا قد استمالوا اليهم جمهور العلماء فلما خبرهم الاذكياء من هؤلاء العلماء وبلوهم ، فلوهم وهجروهم ، وأسسوا الجمعية العلمية لوقاية الاسلام والمسلمين من كيدهم ، وبقي بدهن لهم اكثر موظفي المشيخة الاسلامية الذين عرفوا حقيقة حالهم ،والتبس الامر على بعضهم فكانوا يحسنون الظن فيهم ، لانهم لم يعرفوا أحداً منهم الا بعد حادثة (٣١ مارس — ١٣ ابريل) التي صاروا بعدها يحسبون للدين ورجاله حساباً . وماهيك بعلماء الاستانة ونفوذهم الروحي في الشعب التركي فقد أخبرني محمود شوكت باشا في أول اجتماع كان لي معه ان الحكومة لا تستطيع أن تعمل عملاً اذا كان العلماء كارهين له يأبون وجوده. قال هذا عند ما بينت له مشروع الدعوة والارشاد وبين لي رأيه فيه . ومنه لابد أن يكون بصفة لا يستنكرها العلماء. قلت له أنا أضمن استحسان جميع العلماء له وتمنيهم تنفيذه

بل رأيت الدكتور ناظما على صلابته في مقاصد الجمعية وما عهدته عنه من العزم على تجريد الحكومة العثمانية من الدين بدهن علماء الاستانة ويوهمهم انه هو وجمعيته يودون خدمة الدين . فقد دعيت الى الحفلة التي كرمت الجمعية بها الحاج عمر اليابانى الذي أسلم وحج وزار الاستانة بعد حجه ،وكانت تلك الحفلة في نادي (نور عثمانية) أشهر أندية الجمعية في الاستانة وكان من المدعوين بعض كبار العلماء ، وخطب منهم محمود أسعد أفندي ناظر الدفتر الخاقاني بالتركية (وخطب كاتب هذه السطور بالعربية) وقام الدكتور ناظم فتكلم كلاما قال فيه ان الاسلام محتاج الى خدمة عظيمة من العلماء وهم مقصرون لا يقومون بالواجب عليهم ، وأهم هذه الخدمة الدعوة الى الاسلام وتعميم الارشاد الاسلامي . فعندئذ قال له مصطفى أفندي أوده مشلي مستشار شيخ الاسلام وكان جالساً بجانبي : إن القيام بهذا الواجب لم يكن متيسراً في زمن الاستبداد والآن اقترح رشيد أفندي مشروعا يكفل القيام به على أكمل وجه ونتنظر مساعدة الحكومة عليه (أو قال مساعدتكم — أي مساعدة الجمعية — الشك مني) وقد استبشرت حين سمعت هذه الكلمة من الدكتور ناظم لانني كنت أسمع انه رجل الجد وانه ليس كثير الكذب والنفاق كطلعت بك ، فجئته وقلت له اذا كان هذا رأيكم فالمرجو منكم أن تتكلموا طلعت بك بانجاز وعده لنا وتنفيذ المشروع . فقال لي ما معناه ليس هذا بالوقت المناسب لهذا العمل فلا بد من انتظار سنة أو سنتين . فتأمل

وما عملته الجمعية لابطال نشر هداية الدين اصدار أوامر عامة لجميع رؤساء الادارة في الولايات العثمانية بمنع الاجتماع في المساجد لالقاء الخطب ونحوها وتسريحها بأن المساجد للصلاة دون غيرها . وهذا من جهلهم بالاسلام وتاريخه فان المساجد كانت في الصدر الاول لجميع مصالح المسلمين كالمشاورة في الامور العامة والوعظ والقضاء وتوزيع الصدقات وغير ذلك

وجملة القول ان جمعية الاتحاد والترقي كانت عازمة على ازالة نفوذ العلماء من الامة وكل تأثير للدين فيها الا التأثير السياسي الذي يوافق مقاصد الجمعية تستخدم له من أرباب العمائم من يميل مع القوة والمنفعة حيث تميل كالشيخ صالح التونسي والشيخ عبد العزيز شاويش وأضرابهما . وكان زعماؤها يعتقدون انه لم يبق للدين تأثير يؤبه له . ولكنهم بعد مسألة طرابلس الغرب غيروا رأيهم وعزموا على الجد في الاستفادة من فكرة الجامعة الاسلامية وهو ما نبينه في النبذة التالية

٤

عبث الاتحاديين بالجامعة الاسلامية

لي كلمة في زعماء جمعية الاتحاد والترقي كادت تكون مثلا في سورية وهي : « ان هؤلاء الاتحاديين قد توسلوا الى مقصدهم بكل شيء الا الحق » . ولكنهم فشلوا في كل عمل الا جمع المال ولا سيما عقب الانقلاب فلولا المال لكانوا الآن في عداد الموتى

وقد سلكوا طرق النفاق فهم دائما يظهرون غير مايبطنون كما صرح لي بذلك رجل في الآستانة من أعظم أنصارهم . فانه سألني مرة : الى أين وصلت في تشبثك؟ (أي مشروع الدعوة والارشاد) قلت : وعدني طلعت بك بكذا وكذا من المساعدة، وحقي باشا قال انه طلعنا فكر في هذا المشروع وهو يبذل الجهد في تنفيذه . فقال : أو صدقت أقوالهم ؟ ان هؤلاء ظاهرهم غير باطنهم . وأنا أكشف لك الغطاء عن هذا الامر فأمهلني الى يوم كذا ... وبعد مراجعة حقي باشا ثم طلعت بك ظن انه جاءني بالنبإ اليقين وما هو الا ان طلعت بك كذب عليه أيضاً

نعم انهم كانوا يظهرون غير مايبطنون ، ويسرون ضد مايعلنون . لا في مشروعي الذي غذوني فيه بالوعود سنة كاملة فقط بل في كل مقاصدهم . فمن أوائل مقاصدهم تتريك العناصر العثمانية وكانوا يعاقبون من يبحث عنصره على الارتقاء من غيرهم بدعوى انه يفرق عناصر الدولة . ومن مقاصدهم ازالة سلطة الدين وقوته من الدولة ولكنهم

يظهرون للمسلمين أنهم يريدون القيام بالجامعة الاسلامية . على ان سيرتهم وأعمالهم تكذب هذه الدعوى ، وحسبك ان جميع زعماء الجمعية من الماسون . وأصول الماسونية تنافي الجامعة الدينية ، وهم لا يخالفون الماسونية ، الا في العصبية التركية ، فهم يخادعون المسلمين في شيء والماسون في شيء آخر .

يقول بعض الناس والمغرورون بزعماء هذه الجمعية من مسلمي سورية وغيرها : انا قد علمنا مما أسره اليانا بعض رجال الجمعية ومن بعض أعمالها أنها تريد احياء الجامعة الاسلامية . وان هذا هو غرضها الباطن وانما لاذت بالماسونية ، وأحيت كلمة الوطنية ، لاجل مخادعة الشعوب المسيحية ، والدول الاوربية .

لا أقول انهم سيقولون هذا الا لأني سمعتهم قد قالوه من قبل . وأعلم أن بعض قائليه مأجورون ، وبعضهم مخدوعون . وأنا أعرف سبب هذا ومنشأه . ولا أعجب من تصديق بعض أغرار المسلمين كلام هؤلاء الذين يظهرون لكل قوم بوجه ، ويخاطبون كل أناس باسان . فقد خدع هؤلاء الاتحاديون قبلهم دهاة السياسة ورجال الخبرة من اخوانهم النصارى السوريين في سورية ومصر جميعا . اذ أوهموهم أن ميلهم اليهم واتحادهم بهم خير لهم من اتحادهم بأهل وطنهم من المسلمين وأن مسلمي العرب يغلب عليهم التعصب الديني فلا يمكن أن يعترفوا أو يرضوا بمساواة اخوانهم في الجنس والوطن لهم . وأما الاتحاديون الترك فانهم لا يقيمون للدين وزنا ، ويرون من المصلحة التركية ترجيح نصارى العرب ليضعف مسلموهم فلا يكون لهم مجال للمطالبة بالخلافة العربية التي هي أكبر خطر على نصارى العرب ثم على غيرهم لانها تكون دينية محضة .

وسوس دعاة الجمعية في آذان كتاب النصارى ووجهائهم بمثل هذا الكلام فصدقوه وانخدعوا به . وظهر أثر ذلك في جرائدهم في كل مكان ، وفي مساعدتهم للاتحاديين في انتخاب المبعوثين . ولا بدع في ذلك فقد انخدع كتاب أوربة وساستها من جميع الدول بنفاق هؤلاء الاتحاديين في القول والفعل . حتى ان جريدة (الطان) الفرنسية الشهيرة نشرت مرة لاحد مكاتبيها تفضيلا لهم على الحزب الوطني المصري بأنهم يصرحون بانتقاد دين الاسلام ولا يبالون بأمر المسلمين من غير أبناء جنسهم (الترك) خلافا للمصريين الذين تغلب عليهم النزعة الاسلامية فيبحثون عن مسلمي تونس والجزائر ومراكش ويهتمون بأحوالهم

ثم ما عتم ان انكشف الغطاء للاوربيين عن نفاق زعماء الاتحاديين وجهلهم وغرورهم ، فسبق الى بيانه الفرنسيون والانكليز . ولم يصرح به الالمانيون كغيرهم الا بعد هذه الحرب ، فقد نقل لنا المقطم منذ أيام ان كثيرا من أولئك الزعماء يقيمون الآن في (بروكسل) عاصمة البلجيك وفي مقدمتهم حقي بك وطلعت بك وجاويد بك . وذكر أن جاويد بك قال لمكاتب جريدة (فرنكفور زيتونغ) الالمانية في سياق حديث له . ان أعمال الحكومة العثمانية هي التي كانت السبب في فشل الجيش الذي كان متأهبا أتم التأهب ومجهزاً أحسن التجهيز ولم يكن ينقصه الا حكومة منظمة (أي اتحادية) لتنتصر به على البلقانيين كما انتصرت على الارنؤوط ـ كما قال في جوابه لمكاتب جريدة أوربية أخرى الذي بيناه في المقالة الاولى ـ وطعن في كامل باشا فوصفه بالغرور وحب الانتقام « رمتني بدائها وانسلت »

ثم نقل المقطم بعد ذلك ان مكاتب التيمس في برلين قال تعليقا على هذا الحديث « لم تعد الدوائر السياسية في ألمانية تعير ما يتشدق به الاتحاديون أذنا صاغية ، حتى ان الذين كانوا يعجبون بجاويد بك وزملائه صاروا أشد الناس انتقاداً لهم ، واكثرهم سخرية بهم ، ويذهب أولو الرأي في ألمانية الآن الى ان السياسة التي بثها الاتحاديون في الجيش كانت السبب الاكبر في فشله وانكساره » اه

ثم تنبه نصارى سورية في مصر وفيها الى نفاقهم ، وبقي أفراد منهم في البرازيل على انخداعهم ، وظل بعد هذا كله بعض مسلمي السوريين يغرون الناس بهم ، إما بأجر قليل ، وإما اتباعاً للوهم ، وكان يجب أن يجمع العرب على مقتهم ومحادتهم ، لان العرب أبغض الناس اليهم ، واني أعتقد ان أكثر الذين يتحيزون اليهم منا منافقون وطلاب مال وجاه ، وأقلهم مخدوعون مصدقون أنهم يعملون للجامعة الاسلامية ، واني أذكر مثالاً من مخادعتهم للمسلمين بهذه المسألة :

لما ألممت ببيروت في رمضان الماضي وأنا عائد من رحلتي الهندية زارني ليلة مع الزائرين بعض رجال الحكومة في الدار التي كنت نازلا فيها وكان فيهم رجل من رجال القضاء (العدلية) من اخواننا الترك فنقل الحديث الى الجامعة الاسلامية وفوائدها للدولة وادعى ان جمعية الاتحاد والترقي ترمي الى احياء هذه الجامعة . فقلت له انما ترمي الى احياء الجامعة التركية ، وتتجر باسم الجامعة الاسلامية ، تجذب بهذا الاسم المسلمين الغافلين ، وتخيف الاوربيين المستعمرين ، واني أدرى الناس بمكانها من الدين ، فقد جئت الاستانة باذن الجمعية لاجل مشروع الدعوة والارشاد الذي

شهد العقلاء من الاتحاديين وغيرهم أنه أنفع ما يخدم به الدين ، وكنت موعوداً من الجمعية بالمساعدة عليه ، ثم لما عرف زعماء الجمعية حقيقة المشروع وأنه خدمة حقيقية للدين قاوموه ولم ينفذوه ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه . وكانوا يظنون ان الاسلامي سياسي فيسهل جعله آلة سياسية ، فلما تبين لهم أن اسلامي ايمان ونية وعمل ، ظهر لهم أن مشربي يخالف مشربهم ، وعملي يناقض عملهم ، وقد كان بعض علماء الاستانة يعتذر لي منهم ويقول : لا يمكننا منهم اظهار الميل الى مساعدة مشروعك (وهم يقولون تعبيتك) فانهم يريدون أن يستفيدوا من اسمك وشهرتك ليظن المسلمون أنهم يريدون الخير للاسلام . وكان هؤلاء العلماء يرون أن عدم تنفيذهم للمشروع خير من تنفيذهم اياه مخادعة ورياء لان الامور بمقاصدها .

وكان هنالك علماء ونبهاء آخرون يرون أن الرياء فطرة الاخلاص ، وانهم اذا نفذوا المشروع يرضه المسلمون ولا يضره رياء مساعديه ، اذا صحت نية القائمين به ، وكان من رأي هؤلاء أن أكتم عن الجمعية حقيقة مرادي ، وأوهمها انني أريد أن أربي أناساً يكونون دعاة للدين في الظاهر ولسياسة الجمعية في الباطن ، وأنني أطلب جعل تعليم الفنون في هذه المدرسة الاسلامية العامة باللغة التركية لا العربية ليقبلوا المشروع . وبعض أصحاب هذا الرأي من الذين انتموا الى الجمعية ليتمكنوا بنفوذها مما يريدون من الخير لانفسهم ولامتهم ، ولكنني لم أقبل نصحهم وقلت : انني لا أجعل الباطل وسيلة الى الحق فانا أبين لهم كل مرادي ، وانني لا أريد ولا أقبل أن يكون المشروع آلة سياسية بل دينيا خالصاً ، لان السياسة تفسده باختلاف الاحزاب والحكام من الداخل ، وبمقاومة أوروبة له من الخارج ، ومن الجهل والغرور أن نظن أننا نستطيع أن نخدع أوروبة فان الجاهل القاصر ، لا يستطيع أن يخدع العالم الراشد .

ذكرت شيئاً من سيرتي هذه للزائر التركي الذكي ، ثم قلت له أليس الدكتور ناظم صاحب الفنون الاعلى في هذه الجمعية يصرح بأن الدولة لا يمكن أن ترتقي ما دامت متمسكة بالاسلام ؟ أليس جميع اخوانه الزعماء وأنصاره فيها على هذا الرأي ؟ أليسوا يرون أن فشو الالحاد في متخرجي مكاتب العاصمة هو العون لهم على ما يريدون ؟ فكيف يرجى منهم مع هذا تأييد الجامعة الاسلامية ؟

قال الزائر — وبالله العجب مما قال — ان الدكتور ناظما وكثيراً من زعماء الجمعية كذلك ولكن أكثر المنتمين الى الجمعية متدينون ولعلي غير المتدينين منهم

لا يزيدون على ثلاثين في المئة !

قلت انني لم أكن أظن انهم يبلغون هذه الدرجة من الكثرة وهب ان المتدينين منهم تسعون في المئة واللاحدة عشرة في المئة أليست الزعامة والسلطة في يد الاقلين ؟ قال نعم ولكن هذا لا يدوم،

ثم قلت اذا كانت جمعية الاتحاد والترقي تريد تأييد الجامعة الاسلامية فلماذا تحاول اماتة اللغة العربية وتطهير التركية منها ، فهل يمكن للشعوب الاسلامية أن تتعارف وتتعاون من غير أن يكون لها لغة مشتركة ؟ وهل يمكن أن تتوجه كلها الى تعليم لغة عامة غير لغة دينها ؟

اذا كانت جمعية الاتحاد والترقي تريد تأييد الجامعة الاسلامية فلماذا نرى جرائدها ودعاتها وأساتذتها في جميع مكاتب الحكومة قد جعلوا شعارهم وهجيراهم « الملة التركية» والقومية التركية ومحاولة تعميم اللغة التركية ، فقط ؟ أليست الامة الاسلامية أمة واحدة ملتها واحدة وأفرادها اخوة كما يؤخذ من نص القرآن المجيد. فتقسيمها الى ملل وأجناس كما يفعلون هو الهدم لا البناء للجامعة الاسلامية ؟

قال الزائر التركي الذكي وبالله العجب مما قال — ان اللوج بالملية التركية والعناية باحياء العنصرية التركية ونشر اللغة التركية ، يريدون به الجامعة الاسلامية ، فان المقصود منه استمالة مسلمي تركستان والتتار الروسيين الى الدولة واتحادهم بالترك العثمانيين وبذلك تقوى الجامعة الاسلامية ، وليس المراد به البتة تقوية الترك على العرب ! !

قلت له أو يقال لي هذا ؟ هل الاسلام محصور في الترك والتتار حتى لا تكون الجامعة الاسلامية الا منهم ؟ أم يرون لغرورهم ان دولة روسية هي أضعف الدول فيبتزونها عشرين مليوناً من الترك والتتار يكونون به الجامعة التركية ؟ انني واقف على دسائس الجمعية في هذه المسألة ، ونشرت في (المنار) ترجمة مقالات لجريدة (نوفي فريمية) الروسية تنعي فيها باللائمة على حكومتهم في تركستان لغفلتها عن المدارس التي ينشئها التتار هناك زاعمة ان هؤلاء التتار مرسلون من الاستانة أو موعز اليهم منها ليبثوا فكرة الجامعة الاسلامية في تركستان ويستميلوا أهلها البسطاء الى اخوانهم الترك العثمانيين بدسائس المانية والنمسة . وقد نصحت لاخواني التتار بعد نشر ما ذكرت بان ينزهوا سعيهم لنشر العلم بينهم وبين سائر اخوانهم عن شوائب السياسة الاتحادية ودسائسها ، لان صلة بعضهم بأهلها تضرهم وتضر الدولة العثمانية

لانها تغري حكومتهم بالتشديد في منعهم من نشر العلم الذي يحيي المسلمين في بلادها وبالتصدي لعداوة الدولة العثمانية من جهة أخرى (وكذلك كان فانها هي التي كونت الاتحاد البلغاري ودفعته الى هذه الحرب)

ثم قلت للزائر التركي الذكي : ان ما وافقنا عليه من مناداة الاتحاديين بالقومية التركية والقومية التركية واللغة التركية وبث ذلك في مدارس الدولة هو من أقوى الادلة على ضد ما استدلت به عليه اذ جعلته عملا للجامعة الاسلامية ، فان كانت الجمعية تريد الجامعة الاسلامية الصحيحة كما تقول فلماذا اهتمت بأمر مسلمي تركستان الذين دون وصولها اليهم خرط القتاد دون مسلمي العرب في الحجاز مهد الاسلام ومهبط الوحي ، وفي سواحله جزيرة العرب وسائر العرب الذين لا يحيا الاسلام الا بحياة بلادهم ولغتهم ، ولا يعز الا بعزهم ؟ فقد قال نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام (اذا ذلت العرب ذل الاسلام) رواه أبو يعلى في مسنده بسند صحيح . ولماذا لم تهتم بأمر مسلمي أفريقية العثمانية فعرضت عرب طرابلس الغرب وبرقة لنيران مدافع ايطالية ؟ ولماذا لم تهتم بأمر أربعين مليوناً من المسلمين في جزائر جاوه والملايو وثمانين مليونا من المسلمين في الهند ؟ فهل انحصر الاسلام في الترك والتتار ؟ لو كان الاتحاديون يريدون خدمة الاسلام لنفذوا مشروع الدعوة والارشاد ، واجتهدوا في احياء اللغة العربية وعمران الحجاز وجزيرة العرب قبل كل شيء . هذا ما خطر في بالي من حديثنا مع ذلك الزائر وربما كان فيه زيادة ايضاح لبعض المسائل واختصار في بعضها . وقد كان معنا جماعة من أدباء بيروت وطرابلس يسمعون .

فهذا مثل من أمثال خداعة الاتحاديين لمسلمي سورية وأشباههم وما كل من يسمع مثل ما سمعت يجيب بمثل ما أجبت ، واني أرى ان زعماء الجمعية ما أيقنوا بأنه يمكنهم الانتفاع من الجامعة الاسلامية اذا استخدموها باسم حكومة الخلافة ونفوذها الا بعد حادثة طرابلس الغرب . فقد سمعت ورويت عنهم وأنا في الاستانة انهم يقولون لا فائدة لنا من الجامعة الاسلامية فاننا اذا حاربنا روسية لا ينفعنا مسلمو بلادها ولا غيرهم واذا حاربنا انكلترة (أي في مصر طبعاً) فلا يفيدنا مسلمو الهند شيئاً . وكانوا هم وغيرهم من رجال الدولة يعتقدون قبل حادثة طرابلس الغرب أن العرب فيها لا يبالون بصلتهم بالدولة وربما فضلوا ايطالية عليها تفضيلا ، وسلموا تسليما ، وان سائر المسلمين لا يشعرون بألم انفصال هذه المملكة من ممالك الدولة .

يدل على هذا ما رواه بعض فضلاء العثمانيين عن رأي سفارة الدولة في باريس حين أنذرت

ايطالية الدولة ذلك الانذار واتبعته بضرب أسطولها لطرابلس فذهبت الى السفارة العثمانية لأتعرف رأيها وأعرض لها رأيي فقيل لي انه لاشك في أن أهل طرابلس لايأسفون ولايأسون على زوال سلطتنا عنهم لانهم مارأوا منا خيراً قط !! وقد تألفتهم ايطالية منذ سنين فهم يفضلونها علينا . بل نقلت البرقيات والصحف عن محمود شوكت باشا وكذا عن أحمد مختار باشا أنهما قالا ان الدفاع عن طرابلس الغرب جناية لاتنا لانجد طريقاً لذلك .

هب عرب طرابلس للدفاع عن بلادهم والمحافظة على عمائمهم، وهب العالم الاسلامي لمساعدتهم ، فبدا لجمعية الاتحاد والترقي مالم تكن تحتسب، وأحبت أن تستفيد من هذه الاريحية الاسلامية . وكانت باعت طرابلس وبرقة لايطالية على شرط أن تأخذها بالفتح السلمي بعد ان تخرج منها العسكر العثماني والسلاح ، أي أن تمتلك الاسم والعلم للدولة العثمانية وتعمل في البلاد ما تشاء . فصدرت ايطالية وتصدت لاخذها صورة وحقيقة بالقوة القاهرة اذ خلا لها الجو باخراج العسكر والسلاح منها . فلما هب العرب للقتال، وهب المسلمون كافة للمساعدة بالمال، وقام المبعوثون المعارضون للجمعية يتهمون الوزارة الاتحادية بالخيانة ويطلبون محاكمة الصدر الاعظم حقي باشا وناظر الحربية محمود شوكت باشا ، وفي ذلك هتك الستر ، وانكشاف السر ، ورأى زعماء الجمعية أن الامة العثمانية يوشك أن تثور عليهم اذا لم يبرؤا أنفسهم — لما كان ذلك كله أرسلت الحكومة بعض الضباط وأمدتهم بأموال الاعانة وبما يمكن من السلاح ، وظهر للجمعية أن في الجامعة الاسلامية حياة يمكن الاستفادة منها .

ومن العجائب أن الدكتور ناظم بك لم يقنعه ماسمع وما قرأ عن استبسال عرب طرابلس وبرقة ، وأريحية أهل مصر والشام وغيرهم من المسلمين ، واندفاع الجميع الى السعي لابقاء رابية الهلال فوق تلك البلاد ، بل أرسل زميله وحمي بك الى طرابلس ليختبر الحال ، فلما عاد منها كان هو الذي أقنعه بأن للجامعة الاسلامية وجوداً وتأثيراً حقيقياً ، فصرح الدكتور بذلك في خطبة له رأيت ترجمتها في بعض الجرائد السورية وأنا في البصرة عائداً من الهند ، فهممت أن أكتب اليه كتاباً أذكره فيه بما أعرف من آرائه وآراء رفاقه في الجمعية وأبني على ذلك بعض الاسئلة والحجج .

ثم ان الجمعية بعد ذلك كله أرادت الاستفادة من الجامعة الاسلامية واستثمار هذه القوة من وجوه (منها) استدرار المال من المسلمين كافة باسم الخلافة ودولة

الخلافة وحماية الاسلام — والمال هو المعبود الاول للجمعية كما عرف ذلك من سيرتها منذ الانقلاب الى اليوم — (ومنها) تحذير أعصاب مسلمي العرب العثمانيين حتى لايطالبوا بحق لهم في دولتهم ، ولا يعارضوا الاتحاديين بشيء من مقاصدهم (ومنها) استمالة مسلمي الترك والتتار الروسيين بالدسائس العملية وسائر مسلمي المستعمرات الاوربية بالجرائد وبعض المعممين الذين يسخرونهم لهذه الخدمة . ولاجل هذا أسسوا جريدة (الهلال العثماني) لما رأوا الشيخ عبد العزيز شاويش مواتياً لهم في كل ما يستخدمونه به . وأمدوا جريدة (العلم) المصرية وبعض الجرائد السورية بقليل من المال ووسموا للهلال وأمثاله الحرية في تحريك العصبية الدينية والتنويه بالجامعة الاسلامية ، على تضييقهم على علماء الاستانة وسائر رجال الدين بقدر الامكان (ومنها) غير ذلك مما لا يتسع هذا المقام لشرحه .

وجملة القول ان عبث الاتحاديين بالجامعة الاسلامية واستخدام مثل الشيخ شاويش في ذلك كان أكبر الاسباب التي زادت حنق دول الاتفاق الثلاثي عليهم ظناً منها أنهم ما تجرأوا على ذلك الا باغراء ألمانية والنمسة لضعفهم وعجزهم . فقصدت هذه الدول لتنكيل بالدولة وأسست روسية الاتفاق البلقاني وأغرت دول البلقان بهذه الحرب وأمدتهن بالمال والرجال كما قيل ، ومن ورائها انكلترة وفرنسة يعدونهن بالنفوذ ، حتى ان جرائد هذه الدول كانت أقوى عضد للبلقانيين ، فما جنينا من هذه الخادعة باسم الجامعة الاسلامية الا الزقوم والحميم ، وهذه عاقبة النفاق والغرور ، والعياذ بالله مما هو أعظم من ذلك .　　(نشرت في مؤيد ٢٧ محرم)

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

﴿ رسالة عين الميزان ﴾

بقلم صاحبها محمد الحسين النجفي آل الشيخ الكبير الشيخ جعفر نقد بها مقالة (ميزان الجرح والتعديل) للشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي التي نشرت في المنار وقد نشر بعض هذه الرسالة في مجلة العرفان في آخر عدد منها صفحاتها ٢٦ بالحرف الصغير والقطع المثمن وقد وعد المؤلف باتمامها بعد اطلاعه على تتمة مقالة (ميزان الجرح والتعديل) وهذه الرسالة مطبوعة بمطبعة العرفان (في صيدا) وثمنها قرش ونصف قرش صحيح وهي تطلب من مكتبة المنار بمصر

(*) كتب هذا التقريظ شقيقنا السيد صالح مخلص رضا